# امرأة ورجل

بقلم الأستاذة زينب الحكيم

كان عليها أن تتظاهر بالصداقة كلما دفا قلبها للحب . ونرى فى هذه القصة صراحة المرأة وثورتها إذا هى بحثت عما يعوضها مما تفقد .

قالت « نانس » : لن أنسى أبدا ذلك الصباح الذى أتى فيه « بوب » للعمل فى مكتبنا . وكانت ذكرى اليوم الذى أحببته فيه أكثر من ذلك أهمية ، فقد عرفت من قبل أنه متزوج .

ولكن الحب على مايبدو شىء ليس فى مقدور البشر ضبطه . وقد حدث أننى عندما قابلت « بوب » كنت وحيدة وغير سعيدة . وفى هذه الظروف كان من المستحيل ألا أقع فى حبه كما برهن واقع الحال على ذلك . ولاسيما أن مظهره الخلاب ، وشخصيته الجذابة جعلتاه من نوع الرجل الذى يسترعى انتباهى كثيرا . وقد ذكرنى بفتة بزوجى « جيف » الذى قتل فى الحرب . ولم أفطن إلى ذلك . لحب متى وقعت فيه ، وظلت هذه اللحظة غامضة إلى أن جلاها لى النبأ الذى سمعته فى آخر الأسبوع الماضى — وهو أن زوجته « لى » تنتظر مولودا .

فإن ماانتابنى من ألم خانق ، وما تبع ذلك من اضطراب عواطفى لم يدع لى مجالا للشك فيما وقعت فيه . نعم وقعت فى الحب الثانى ، وتأكدت أنه سيجلب إلى عذاب القلب فى

---

وكانت هناك كلمات ضعيفة لم تستطع أن تخرج من بين الشفتين إلا هواء ... هواء فارغا من كل صوت . وأخذت يداه بعد دقائق تتخليان عن العصا قليلا ... قليـــلا ... قليلا فالتفت حلقى فإذا بالطبيب ينظر إلى وهو يسأل سؤال العارفين :

— خلاص ؟ فأجبت :

— خلاص !

وأطللت على الدهليز المكشوف فى مساء نفس اليوم فلم أر إلا كانونا لا نار فيه ، وحصيرا ينعكس عليه ضوء القمر ، وامرأة حانية على وليد ترضعه فى سهوم بعد أن تفرق من حولها النسوة

محمد عبد الحليم عبد الله

هذه المرة أكثر مما يجلب السعادة .

لقد كنت أنا و« بوب » صديقين من أول يوم تقابلنا فيه لتقاسم العمل المتشابه فى مكتب رئيس مقاطعتنا ، ويعط بى تلخيص المسائل ، وتزويدها بما يلزم من تمهيد فى كل عمل توليناه . وأعجبنى منه تركيز انتباهه إذا مادرس أى مشكل جديد ، وسرنى سرعة تفكيره .

وأتذكر أول محادثة لنا غير رسمية ، عندما تناولنا سيكارتين فى مقر دراسة أثناء قيامنا بعمل مرهق فقد قلت له : إنك تذكرنى بالمرحوم زوجى ، ودهشت من نفسى بعد أن قلت له ذلك ، لم يكن من عادتى أن أتحدث عن « جيف » بهذه السهولة للغرباء ، وقلت مستطردة لأخفى دهشتى من اعترافى : لقد كان له مثل موهبتك من القدرة الخارقة على كل عمل تولاه ، وقال « بوب » : لابد أنه كان رجلا عبقريا . لم أكن أعلم أنك متزوجة ! وهل حدث ذلك من مدة طويلة؟

فأجبت : نعم كنت متزوجة ولكنه مات بعد سنتين من حياة زوجية سعيدة ، وترانى لاأستطيع شرح موته بهدوء مع أحد ، فغير « بوب » موضوع الحديث ، وكانت تعلم « نانس » أن زوجته معه فى وشنطن ، وسبق أن تكلم أمامها عن بعض مشاكلهما البيتية ، وطلب إليها غير مرة مقابلة زوجته مؤكدا لها أنهما سينسجمان معا .

وأخيرا قالت نانس زوجة « بوب بريسكوت » فى حفلة ساهرة ، وكان « جاك أنسلو » يرافق نانس حينئذ ، وقد وصلا متأخرين ، ووجدا جموعا من الناس يتنقلون بين الحجرات ، ولكنهما لم يريا بعد أسرة بريسكوت . وفجأة سمعت نانس صوتا ليس غريبا عنها بالقرب منها ، فوجدته « بوب » مخاطبا إياها « ها أنت ذى هنا . لقد ظننت أنكما اعتذرتما من عدم المجيء » ، والتفت إلى زوجته « لى » قائلا : عزيزتى « لى » أريد أن أعرفك باثنين من أصدقائى « نانس ورن » و « جاك أنسلو » ، فسلمت عليهما تحية ولمحت « نانس » فى مهارة لمحة لم تخف عليها ، وعرفت « نانس » من هذه الحادثة أنهما لن تكونا صديقتين . وصدق حدسها مع الأسف ، ولكنها عولت على أن تحب « لى » زوجة « بوب » لأنها أحبته هو . وقد كانت لى ذات جمال يسترعى النظر وطلعة بهية ، ووجه يكاد يكون شرقيا مع شعر ناعم أسود معصوب حول عنقها . ولكنها كانت من نوع المرأة السفساطة المشاكسة المتحفزة . وقد قالت نانس من أمثالها كثيرات من قبل

اقترح « بوب » أن يذهب أربعتهم إلى المطعم لتناول العشاء ، وأسرع جاك إلى تأييد

الافتراح ، أما « لى » فقد كانت تسلم بما اقترحه زوجها .

ووصفت نانس جاك قالت : لقد كان رجلا لافتا للنظر وعلى جانب كبير من الظرف ، ولكن لن أتصور أن أقع فى حبه أبدا ، لذلك لم يزعجنى ما رأيته من عبث «لى» معه تلك الليلة ، وإنما الذى أقلقنى حقا ، وضايقنى فعلا ، هو ما يمكن أن يحدث هذا السلوك من رد فعل لزوجها . على أن « بوب » لم يبد أى علامة تدل على أنه لحظ شيئا على سلوك زوجته ، وقد يكون بالفعل رأى شيئا . وحاولت جاهدة أن أجد موضوعا أستطيع نقاشه معها .

وأخيرا سألتها : هل تحبين وشنطن ؟ فأجابت : وهل يحبها أحد ؟ على أنى قد آلف الوجود فيها بالتدريج كما يقول «بوب» ولكنها تظهر فى عينى مملة الآن .

فقال «بوب» : إن هذه هى المرة الأولى التى عاشت « لى » فيها بعيدة عن أسرتها ؛ ويلزم للإنسان بعض الوقت ليلائم بين نفسه والبيئة الجديدة .

فقالت « لى » : لست أعتقد أنى أريد أن آلفها .

فقال « جاك » : هذا شىء مما أعرفه عن النساء . إنهن يحببن العزلة ، ويردن المدينة التى سبق أن عرفنها ، والأصدقاء ذاتهم ، والنادى نفسه من المهد إلى اللحد .

فضحك «بوب» وضحكنا معه . وقالت « لى » فى انسجام — إنى متأكدة أيضا أنك تعرف أشياء أخرى عن النساء ياجاك ، فقال فى حذر : ولكنى لن أزعجك بما أعرف .

وعادت نانس إلى منزلها وقد كونت فكرة محددة عن «لى» . وأكثر من هذا أنها بعد أن تقابلت معها ، كان من الصعب عليها أن تنزعها من أفكارها ، فلم تعد بعد الآن فكرة ، ولا امرأة ليست لها أهمية بالنسبة إلى . إن لها شخصية خاصة ، وهى جميلة وأنانية ، وهى بلا شك امرأة قاسية ، ولكنها فى الوقت ذاته تحمل سعادة « بوب » فى يديها الدقيقتين .

ورأت « نانس » « لى » ثلاث مرات بعد ذلك ، مرتين منها فى حفلتى كوكتيل صغيرتين ، وكانت المرة الثالثة فى منزلها عندما كانت وزوجها يكرمان «بتى وليز» لانضمامه لموظفى المكتب ، وكان « بتى » وزوجه «إيدث» الصديقين الحميمين لأسرة بريسكوت ثم علمت نانس بالتدريج شيئا عن نشأة «لى» فقد سبق أن اشتغلت فى إحدى شركات الإعلانات قبل أن تتزوج ، وكثيرا ما أشاعت أنه كان فى مقدورها أن تبرز فى عملها ، لولا وقوع «بوب» فى حبها ، وتقلها بعد الزواج إلى وشنطن ، مما أساء إلى مشاعر زوجها .

واختار الموظف الجديد وزوجته منزلا صيفيا ، ودعوا فريقا كبيرا من أصدقائهما فى آخر الأسبوع للسباحة ، وذهبت نانس وجاك إليهما يوم السبت مبتدئين الرحلة من وشنطن متأخرين ، ولدى وصولهما وجدا جميع المدعوين قد حضروا ماعدا أسرة بريسكوت ، لأنها لم تتحرك من وشنطن إلا ظهرا ، وعندما وصلا كانت « لى » فى حالة نفسية سيئة ، أما بوب فكان ممتقع الوجه بادى الهزال ، فاستقبلهما بتى باهتمام وسأل بوب عما أخرهما واطمأن عليهما .

لقد كان فريق من المدعوين مضطجعين على كراسى الشاطئ فى الرواق الرملى الذى يرى على بعد خمسين ياردة منه مياه الخليج الزرقاء المترقرقة كالبلور الصافى . وقال « بوب » إن « لى » مريضة ولعله كان من الواجب ألا نحضر اليوم ، فقالت « لى » مكررة ولم لا ؟ إذهب للاستحمام ، وسأجلس هناك حيث أستطيع رؤيتك ، أو قد أشغل نفسى « بالحياكة » أليس هذا هو ماتعمله الأمهات المترقبات المولود المنتظر يابتى ؟

فقال بتى : أعلم أنك تكرهين السباحة على أى حال فلا تتظاهرى بالتضحية .

فقالت مخاطبة « بوب » عجل بارتداء لباس البحر . وسنراك فى الماء .

ففعل ماأمر به وتوجه توا إلى مبنى الحمام وبعد دقيقة مشت « لى » متكاسلة لتلتحق « بإيدث » وفتاة أخرى فى الرواق .

قالت « نانس » شعرت باضطراب عنيف فى أعماقى ، ودق قلبى دقات خاطفة من الألم ، وبغتة تغير كل شىء ، ولم يبق اليوم هادئا سعيدا ، فكأنما التقت زوبعة بعاصفة فى أحشائى ، وكانتا تمزقان جسمى إربا .

وكان المدعوون يتداعبون أو يجاهدون راجعين إلى الماء ، بينما حضر إلى جاك واجتذبنى من كرسى قائلا : إنك شاحبة كالشبح أرجو أن تكونى بخير . فأجبت لماذا ؟ طبعا أنا بخير ، وكل ماأحتاج إليه هو أن تلوح الشمس وجهى . واتخذنا طريقنا نحو الجماعة ، وشعرت وأنا أسير معه على الشاطئ الرملى بأن قواى ستخوننى إذا ماخضت فى الماء ، ومع هذا حاولت . بل جازفت بالنزول فى الماء ؛ ولكنى بقيت بقرب الشاطئ وسبحت فى أنصاف دوائر بلا غرض ، فقد تردد فى خاطرى أنى أحب « بوب بريسكوت » ، إنى أحب « بوب بريسكوت » ورددت أمواج الماء هذا اللحن الرخيم : — أنى أحب « بوب بريسكوت » و « لى » زوجته تنتظر مولودا .

وبينما كنا نتناول بعض الشراب على الشرفة فى المساء ، وقف « بوب » إلى جانبى لحظة وقال : إنى سعيد برؤيتك

« يا نانس » ، وكانت تحيط بعينيه هالات سمراء ، وبدا عليه الوهن أكثر مما بدا عليه حين أتى ، كما بدا عليه القلق والهم . ودبت الرعشة فى قلبى وذلك ما لم يحصل فى اليوم السابق . وكنت مرتبكة بحيث لم أجد كلاما أقوله له . ومر بنا جاك فى تلك اللحظة ، فمضيت إليه واجتذبته إلى الداخل ليتحدث إلينا ، فكان مساء لا تنسى ذكراه المؤسية . فقد حدث أنه بعد أن تحدث إلى « بوب » لحظة ، رأيته يضع كأسه وقد فرغت إلى النصف وراء شجيرات الأصص التى فى الطنف . وبعد دقيقة يصل إلى «لى» ليحاول أن يأخذ كأسها من بين يديها ليمسك هو بها ، فتقول فى خفة : اتركنى فسأحتسى كلما أردت ذلك

ولم يقل « بوب » شيئا وحرك كتفيه فى يأس ومشى بيديه فارغتين . وهنا كانت اللحظة التى أيقنت فيها أن شعورى التأثر بموقف لى منى ، قد زاد وبدأت أكرهها ، لأنها زوجة الرجل الذى أعجبت به ، والمرأة التى استولت على من أحببت ومنافستى الوحيدة فيه ، وهى المرأة التى ستنجب ابنه . وبلغت المنافسة بيننا أشدها ؛ ولكن كان من حقها كل شىء ، وكان الترجيح فى جانبها

فكان لها أن تعنف أو تعير « بوب » وأن تفتك به أو أن تفسد حياتها كلها ، وكان عليه أن يحتمل لأنها زوجته ، وسيكون لها سلاح آخر من الأغلال أقوى ، توثقه به إلى الأبد إذا ما رزقت مولودها المترقب . وقد أتخيل أن « بوب » يضيق ذرعه ، ويضعف احتماله بهذه الحال ، وقد يطلقها ، ولكنى لا أتصور أبدا أنه يضحى بابنه

ضاقت نفس « نانس » بهذه الحالة العاطفية المسيرة التى أحاطت بها من كل جانب وازدادت سوءا إثر كراهيتها لمواجهة « بوب » فى مكتب العمل . مما جعلها فى موقف شاذ ، ونفسية مريرة ، وحياة قلقة ، فلم ينمقش لها جفن طوال ليلة الأحد . على أنها استطاعت أن تدارى موقفها إلى حد كبير فى اليوم التالى عندما ذهبت على عادتها إلى مكتب العمل ، وحيت « بوب » بابتسامة لطيفة كادت تكون طبيعية ، عندما أسرع إلى مكتبها ليجمع بعض التقارير الخاصة بالمؤتمر ، الذى سينعقد فى مكتب الرئيس

وتعددت هذه المؤتمرات بحيث ضاعفت العمل بالمكتب أياما كثيرة ، ولم تهدأ الحالة نوعا ما إلا فى يوم الخميس ، وحينئذ سنحت الفرصة « لبوب » بأن نتكلم عن شىء آخر غير العمل ، وكنت قد عكفت على حياة الغرام التى تبينتها فى نفسى بالنسبة لبوب

أثناء الأربعة الأيام الماضية ، فشعرت بشيء قليل من الهدوء النفسي . واقترح «بوب» في ذلك الصباح أن نذهب إلى المقهى لنتناول فنجانا من القهوة . ولقد نا الاقتراح فورا ، وحينما كنت أضع جزءا من السكر في فنجاني شاردة الذهن لحظت أنه كان يلقي على نظرة فاحصة ، فقابلت نظراته بابتسامة ، فسألني فيم كنت أفكر ، قلت : كنت أفكر في حبي الشديد. فقال: شكرا لك «يانانس» ، إنك صادقة مخلصة ، وأعتبر نفسي موفور الحظ لأن أخذك صديقة . فقالت شكرا لك « يا بوب » إني بدوري شديدة الاعتزاز بهذه الصداقة . وساد الصمت بينهما فترة ، الى أن تشجعت نانس فأضافت جملة أخرى، فقالت : إني مغتبطة كل الغبطة لأنك و«لى» ستررقان مولودا . وما كدت أنتهي من هذه الجملة حتى لحظت على وجهه نوعا من الوداعة لم أعهده من قبل ، ولكن كان أثيرها مريرا على . فكانت كسكين اخترقت قلبي . وساد الجو فترة سكون أخرى ، وبدأ « بوب » الكلام هذه المرة ، وسألني : أتلك أولاد يا نانس ؟ إنك لم تحدثيني عن أحد منهم — ولكم عجبت لذلك . فهززت رأسي سلبا ، وقلت : هذا موضع ندمي دائما . فقال : وهكذا انتهت الحال على هذه الطريقة ، فقلت في صوت هادئ نعم : لو كان لي طفل لعوضني جانبا من فقد «جيف» ، لأنه جزء منه كان يجب أن يستمر حيا ، فضلا عن أن وجود الطفل كان شيئا مهما بالنسبة لي شخصيا — لذات الطفل . وكم وددت أن تكون لنا ذرية صالحة ، ولكن حياتنا ما كادت تبدأ حتى انتهت ، فقدمات جيف في الحرب . فقال « بوب » ولكن تنشئة الأطفال وحدها أمر شاق جدا يا نانس . فقالت لم أكن أتصورها سهلة ولكني كنت أستطيعها . فقال : لا ريب كنت تستطيعينها لأنك شجاعة ، ولك مقدرة على هذا العمل الذي ربما أرهق زوجك . فقالت لست أظن ذلك ، لقد فهم أحدنا الآخر ، وكنا صديقين كما كنا محبين . فقال مبتسما : لقد كان زواجكما سعيدا إذن . ثم أضاف : لست أدري إذا كانت زوجتي تفهمني دائما ، أو أفهمها أنا أيضا . وأخشى أنها تظنني أبله لأني شديد الشغف بابني، ولو أنه صغير الجسم بصورة غير مألوفة، فوزنه أربعة أرطال ونصف وقد وضعه الأطباء في بيئة أشد شبها بحضن التفريخ زيادة في الحيطة . على أن طبيبه الخاص يؤكد أنه بخير ولا خوف عليه . فسألته : وكيف حال « لى » فقال إنها بخير ، وأشغل نفسي كثيرا بإعداد النشرات عنها وعن المولود

وعلى الجملة لم يدع « بوب » كبيرة ولا

صغيرة لم يخبر نانس بها . وشعرت نانس أنها تعيش حياتين ، حياتها الخاصة وحياة « لى » ، ولهذا عولت على أن تتخذ خطوة حاسمة مقررة أنه من السخف المروع أن تقع المرأة فى حب زوج امرأة أخرى ، وقررت أيضا التخلص من احتمال آلام منصبها الراهن فى العمل الذى يسبب مقابلتها « لبوب » باستمرار مع معرفة الكثير عن حياته الشخصية والتى لا يخصها نصيب منها ، وأصرت على أن ترحل عن وشنطن ، حتى تبعد عن كل شئ ، ولتعيش بعيدا على ذكرى حبها الثانى

وبكرت فى صبيحة أحد أيام نوفمبر لترى مدير المكتب ، وطلبت إليه نقلها . فظهر عليه التعجب والدهش لطلبها ، ولكنه قال : سأنظر فيما يمكننى عمله من أجلك ، وأشار إلى أنه ربما استطاع تحويلها إلى عاصمة الولايات

لم تخبر « نانس » « بوب » بما انتهى إليه قرارها ؛ مفضلة إرجاء ذلك حتى يتم النقل. وفى الوقت ذاته كان « بوب » مضطرا للسفر بالطائرة إلى الشاطئ الغربى فى منتصف نوفمبر بتكليف رسمى لإلقاء محاضرات . وشغلها فرز التقارير التى قد يحتاجها فى رحلته طيلة عصر اليوم السابق ليوم الرحيل وسألته «نانس» إذا كان فرحا بالرحلة !

فأجاب سلبا ، وقال كم وددت لو كانت الرحلة قد انتهت وعدت منها اليوم ! لأنى أكره فراق « تدى » ولدى العزيز ، الذى لم تريه حتى الآن . وسألها متى تزور أسرته ؟ قالت : لقد أرسلت بعض الأزهار إلى «لى» بالمستشفى وهدية للمولود ، ولم أحاول رؤية الطفل مؤجلة الزيارة الشخصية خشية أن تخونني رزانتى عند رؤيته ، وكذلك منعنى كثرة العمل

فقال : هذا عذر واه ، وعلى أية حال يمكنك تأدية الزيارة وأنا مسافر . فوعدته أن تفعل ذلك ، وحددت يوم الأحد مقدرة أنه سيسهل عليها رؤية الطفل لأول مرة من غير أن يكون أبوه المزهو به واقفا إلى جانبه

وتركت « نانس » منزلها فى الساعة الرابعة مساء ، متجهة نحو جسر « تافت » تاركة رسالة مع عامل التليفون بأن يخبر «جاك» بأنها ستعود فى نحو الساعة السابعة فقد كان بينهما موعد للعشاء

وكان اليوم صحوا لطيفا مشمسا من أيام أواسط نوفمبر ، واستقلت السيارة العامة « إلى جورج تون » وقطعت مسافات طويلة فى رحلة موفقة ، تفرجت أثناءها على جزء كبير جدا من وشنطن التى يتنظر أن ترحل عنها قريبا وفى نفسها لوعة لذلك

قالت «نانس» عندما نزلت من السيارة

مشيت أمام الأبنية الثلاثة الضخمة الموصلة لمنزل أسرة « بريسكوت » وأشارت إلى أن كل إنسان يعرف وشنطن بقدر ما تكون عليه « جورج تون » ، فهى خليط من الأسر والبيوت القديمة العظيمة ، والأسر العريقة الصغيرة ، وهى صفوف من الأبنية ، ولفت نظرى أحدها ، كان لون طوبه أخضر ناضرا ، وتحيط به شرفات على جوانبها أشجار الزينة ، وله مداخل أنيقة ترتفع درجة أو درجتين على مستوى الشارع ، وفى رحابه حدائق صغيرة جميلة التنسيق منعكسة داخل أسوار مرتفعة

وكان المساء يتقدم بينما اقتربت «نانس» من منزل « بوب » ، وكان منزلا صغيرا مكونا من حجرة واسعة ، وثلاث أخرى فى الداخل بنى على سطحها ست غرف ومعها الحمام والمطبخ وقد أجراها مفروشة

قالت نانس : ودهشت إذ رأيت جرائد الأحد مبعثرة فى المدخل . فجمعتها ثم طرقت الباب ، فلم أتلق إجابة لمدة دقيقتين ، ولكنى سمعت صوت كرسى يحرك على أرض حجرة عارية ، ورأيت ضوءا أشعل فى حجرة الاستقبال ولو أنى لم أستطع رؤية شىء مما بداخلها فقد كانت نوافذها مغلقة . وطرقت الباب مرة ثانية . وبعد لحظة سمعت مفتاحا يتحرك فى قفل الباب ، ثم فتحت « لى » وحيتنى بنظرة عابرة ، وكانت مرتدية معطفا منزليا ذهبى اللون وعليه تطريز جميل من قماش الكريب ، ولكن كان عليه بقعة كبيرة فى أحد جوانبه أصابته ، كأنها كانت تطهو وهى ترتديه ، ورحبت بى فى صوت كدت أنكر أنه صوتها الذى أعرفه ، قالت : ها أنت ذى ! تفضلى ، وقادتنى إلى حجرة الاستقبال ، فوجدت بها امرأة سوداء جالسة لافت ، ترتدى سروالا رصاصيا وصدارا أخضر اللون ، وكانت مضطجعة فى إحدى زوايا الكنبة الكبيرة وممسكة بكأس فى إحدى يديها ، وبسيجارة فى اليد الأخرى أطفأتها بينما كانت لى تقدمنى إليها

قالت « لى » هذه « جيرى » صديقة قديمة ، أتت لمس فقط فى طريقها إلى نيويورك

ثم قالت : وهذه « نانس » «يا جيرى » تعمل فى المكتب الذى به « بوب » ، وجلست على كرسى ، بينما جلست أنا على الكنبة إلى جانب « جيرى »

ولحظت أن «جيرى» تفحصنى متمعنة ، وأخيرا وضعت كأسها على المنضدة ، ثم نهضت قائلة : سأعد لك كأسا فأى مزاج تفضلين : الماء أم الصودا ؟ فقلت الصودا ، مفضلة قبول الكأس على الاعتذار منها

ودار نقاش حول هذا

وذهبت جيرى إلى المطبخ حين جلست « لى » فى مكانها مظلمة النفس واضعة رأسها على متكأ القعد . ودرت بنظرى فى حجرة الاستقبال المعثرة ! فأيقنت أنهما كانتا تعاقران الخمر طوال يومهما ، كما كانت صحف السبت ملقاة فى كومة على الأرض بجانب الكنبة ، واكتظت منافض السجائر الأعقاب حتى سوهت أعقاب السجائر جانبا كبيرا من المناضد التى تحملها ، كما كانت مقاعد الزهريات بحجرة المائدة مغطاة أوراق الأزهار المتناثرة من بقايا الورود الذابلة . وكانت هناك أكواب كثيرة مهملة هنا وهناك ، بالإضافة إلى ثلاث زجاجات من آثار غذاء الطفل . وقد كونتى هذه الزجاجات « تدى » فسألت كيف حال الطفل ؟ فأجابتنى « لى » إنه بخير — ينام كل الوقت أو يأكل — واستفسرت عما إذا كان نائما الآن ! فقالت إنه فى الطابق العلوى ، ثم أومأت ها هى تدى « جيرى » ! وبادتها فى رقة قائلة : كونى ملاكا يا عزيزتى وزيدى كأسى قليلا . وما مثت الرءوس أن حميت ، ثم أعقبتها ساعة من الكابوس مزعجة ، فقد كانت « جيرى » من ذلك الصنف الذى يهذى إذا ما لعبت الخمر برأسها — واحتكرت الحديث —

ولما تعبت من كثرة الكلام عن نفسها وعن عملها فى فن الإعلان بالإفاضة الممله ، تناولت « لى » وأسرفت فى وصف نبوغها لما كانت موظفة ، وأشادت بتعدد مريديها فى حلقة الرقص ، ثم عرجت على نقد حياتها الحاضرة ، وقللت من قيمة ربط حياتها بزوج وبابن ورعاية منزل ، وأنكرت أن تقصر ذكاءها على معالجة مثل هذه الأمور التافهة

فقالت « نانس » فى شىء من الحدة : ليس من الضرورى أن تجلب الوظيفة السعادة فى الحياة . ولكن « جيرى » عارضتها فى ذلك قائلة : إذا لم يكن من مزايا الوظيفة العامة إلا التسلية والتنشيط لكفى . لقد كانت « لى » وكذلك كنت أنا من أسعد الموظفات ، ولم يحدث أن صادفتنا ظروف كرهت إلينا ما أخذنا على عاتقنا أداءه ، وأمنت « لى » على قولها ، وأضافت : أما الحياة الآن فملة وسخيفة . ودهشت « نانس » من لون حديثهما ، وأرجعت ما فيه من شطط إلى ما فعلته الخمر برأسيهما ولكنها حنقت فى الوقت ذاته على « لى » التى لا تقدر النعمة التى من الله عليها بها — وهى الزوج والولد — وقد حرمتها هى وكانت خير من ترعاها وتشكر الله عليها .

وعلى حين بغتة سمعنا صراخ طفل ينبعث من الدور العلوى

فقالت «لى» بصوت قلق : إنه «تدى» جوعان مرة أخرى . واستأذنت « نانس » فى أن تراه ، فأجابتها « لى » إلى ما أرادت قائلة : اصعدى إلى فوق وألق نظرة على — الغول — ، وبعد أن همت لتصعد معها جلست ثانية ، ونادت « جيرى » وسألتها أن تغذى الطفل هذه المرة لأنها متعبة جدا ولا تستطيع أن تصعد السلم ، وتممت قائلة : هناك كثير من زجاجات التغذية بالثلاجة ، نعم كثير منها ، لأنى أملأ زجاجات طول اليوم ، وهذا هو العمل الابتكارى اللعين الذى أؤديه الآن وأضيع وقتى فيه

وصعدت « نانس » بينما اتجهت « جيرى » إلى المطبخ ، وكان السلم من النوع الذى يرى عادة فى المنازل العتيقة ، ذلك النوع الشامخ العميق الدرج وكان موصلا إلى صالة صغيرة ، وأرشدنى صوت بكاء الطفل إلى حجرة نومه ، وكانت أشد شىء شبها « بالثلاجة » فكان السرير الكبير غير مرتب ، والأحذية والملابس الداخلية منثورة على الأرض . كما كانت منضدة الزينة مغبرة بالغبار وبأنواع المساحيق ، ومحملة بشتى زجاجات العطر والحلى ، والعجائن والدرور ، وزيت للطفل وزجاجات أخرى فارغة

وأخيرا وجدت الطفل البائس فى مهده بالزاوية المقابلة من الحجرة ، وكان نائما على بطنه ، ويبكى بحدة ، ولم يظهر من جسمه إلا جزء من مؤخرة رأسه وقبضة إحدى يديه فوق البطانية ، وكانت هذه الأجزاء محتقنة

فوقفت هناك أنظر إليه فى ألم ، وانهمرت دموعى غزيرة عندما لمست يدى رأسه الناعمة ، وكم حمدت الله أنى كنت منفردة بنفسى فى تلك اللحظة

وسكت الطفل قليلا ، واستأنس بأن أحدا قريبا منه ، وفى عجلة أتت « جيرى » تترنح على السلم ومعها زجاجة غذائه ، وأرادت أن تضعها فى فمه وتعود مسرعة ، فقلت لها : أقدر أنه مبلل الثياب ! فقالت : هو دائما هكذا إما مبللا أو جوعان . فلما استوثقت من قولها أشرت بتغيير ملابسه فطلبت إلى أداء هذا العمل ، وأسرعت إلى كومة من الغسيل النظيف ملقاة على أحد الكراسى ، وناولتنى ما لزم للطفل ، ثم طلبت إلى أن أباشر تغذيته أيضا لأنها تخاف من الأطفال بوجه عام ، وتفزعها رؤية « تدى » بشكل خاص لضآلة حجمه . فلم أرفض ، وحملت الطفل المسكين إلى كرسى بقرب النافذة لأعطيه غذاءه ، وغابت « جيرى » ناحية غرفة الحمام ، واستمتعت بصحبة الطفل فترة ، كما عشت فى لحظات من أغرب ما صادفت فى حياتى كلها ، فقد

جلست فى منزل امرأة غريبة عنى ، وعنيت بطفل امرأة أخرى ، ومع هذا خيل إلى أنى فى منزلى والطفل ولدى ، وتمثل لى الخيال حقيقة لا ريب فيها ، بحيث أننى عندما نظرت إلى وجه « تدى » شعرت بالزهو والرضا اللذين تشعر بهما كل امرأة إذا ما وضعت طفلها الأول ، مع امتزاج هـذا الشعـور بالحب الصـادق والحنو الدافق والشغف الذى بدأت به حياته . كما أننى أحسست حينئذ بأننى إذا لم أعقب طفـلا فيكفى أننى عرفت من تجربتى مع «تدى» كيف يكون شعور الأم التى رزقها الله ولدا

وفرغت زجاجة غذائه ، وظهر عليـه الاستعـداد للنوم ثانية . وكم كرهت أن أتركه من بين ذراعى ، ولـكن كان من الضرورى أن أضعه فى مهده ليستريح . ووقفت أنظر إليه دقيقـة أخرى قبل أن أتركه لينام وقدرت أنى ربما أرى هـذا المخلوق ألف مرة وقد لا أراه مرة ثانية . ولـكنى حرصت على أن أثبت فى ذاكرتى إلى الأبد صورة ابن « بوب » كما رأيتهـا اليوم ، فقد كان ولدى أيضا اليوم

وكنت قد انتهيت من دس الأغطيـة حوله ، حين عادت جيرى إلى الغرفة آتية من الردهة متجهمة الوجه من الإسراف فى الشراب ، وأقلق تفكيرى ترك الطفل فى رعاية امرأتين ثملتين ! واستفسرت من « جيرى » ونحن فى طريقنا إلى السلم إذا كانت « لى » بخير ؟ وعما إذا كانت غير متـأثرة من الإسراف فى الشراب ؟ ! فأجابتنى مغرقة فى الضحك : « لى » ! « لى » ؟ إنها لا تفقد شعورها أبدا ، وقد عرفتها من سنين طويلة ، وعجيب أنى لم أرها مرة ثملة مهما احتست من الشراب . فقلت: وهكذا أنت واثقة من طبعها ! حسن .. ان أزيدك توصية بالانتباه إلى الطفل فإنه يحتاج إلى رعاية ، فلا تقصرا .. قلت هذا وحبل إلى أن عينيها متقدتان غيظا ولـكنى لم ألحظ نبرة الدفاع فى صوتها إذ قالت : ولـكنه ابن لى أليس كذلك ؟ وعنيها أن تعنى به بإسبدة «تانس» يازميلة «بوب» فى العمل بالمـكتب

بالطبع قالت هذا بطريقتها الخاصة المسيئة من طرف خفى ، بأن لا أتدخل فى شؤون الغير ، ولـكنى حاولت هجرها آخر قبل أن أنهزم فسألتها إذا كانت تسمح لى بإعداد فنجانين من القهوة أو شىء من الطعام لها قبل أن أفارقهما ، فلم توافق على أن أشغل نفسى حتى ولا بالتفكير فى هذه المسائل . وأكدت أنها ستعنى بالطهو اليوم لتعطى « لى » فرصـة للراحة ، ودعتنى أن أبقى للعشاء معهما ؛ وقالت : إنك طيبة القلب ورحيمة بالأطفال كذلك . فشكرتها معتذرة

بأن لدى موعدا للعشاء فى الخارج ويجب أن أذهب حالا

وسلمت على « لى » وقد صاحبتنى إلى إلى الباب بخطوات كأنها ثابتة

وما كادت تغلق الباب خلفى حتى شعرت بأنه كان يجب على أن أبقى . وبينما كنت أتردد فى الأمر مرت سيارة أجرة ووقفت أمامى فى الطريق المهجور ، فصعدت إليها بدون تفكير ، وبلغت مسكنى سالمة ، وأقنعت نفسى بأنى عملت كل ما كان ممكنا عمله فى الظروف التى وجدت فيها من ضبط النفس ، وهدوء الأعصاب ، ولم أهول فيما رأيت من سلوك الأم للطفل نظرا لإمعانى فى كراهية « لى » خشية أن أتهم بالتحامل عليها . على أن القلق على « تدى » ساورنى ثانية بعد أن ارتديت ملابسى استعدادا لموعد العشاء ، وتصورت فى وضوح أنه من الممكن جدا أن يسقط الطفل من بين يدى التمثلتين ، وقد تهملان غطاءه فيصاب ببرد شديد ، أو قد تتعثران به على السلم الذى لا درابزين لها

وخلصنى من وساوسى هذه جرس التليفون ، وكان المتحدث « جاك » الذى أكد أنه سيحضر فى تمام الساعة السابعة والنصف ليصطحبنى فى سيارته لتناول العشاء . فلما انتهت المحادثة ، جال بخاطرى أن أترك رسالة تلغرافية « لأيدث ويلز » لتمضى مساءها عند « لى » زيادة فى الحيطة نظرا لما مى وصديقتها عليه من حال ، فوجدتها وزوجها فى الخارج ولن يعودا إلا متأخرين فأسقط فى يدى وتركت الأمر لله

لا ريب فى أن « جاك » أعد لنا عشاء شهيا فى تلك الليلة ، ولكنى كنت فاقدة الشهية ، ولا بد أن صحبتى كانت مملة ، فقد تركزت فى أفكارى كلها حول ذلك المنزل فى جورج تون ، ولم أذكر عن ذلك شيئا « لجاك » وعدنا إلى مسكنى حوالى منتصف العاشرة ، وودعنى « جاك » عند بابه ، وآويت إلى فراشى فورا لأكون مستعدة لعملى فى صباح الغد

وباشرت عملى فى اليوم التالى وقد طلبت إلى الله أن يكون طالعه سعيدا ، ولكن القدر إذا نفذ فقد نفذ ، ودق جرس التليفون بالمكتب قبيل العاشرة ببضع دقائق ، فجاوبه « بتى » وبدا أنه سمع خبرا مروعا ، ثم سمعته يقول سأحاول الاتصال « بسان ديجو » لأخبره على الفور ، وقرر « بوب » العودة فورا على الطائرة ، ووضع « بتى » سماعة التليفون فى قنوط ونظر إلى « نانس » فى يأس وأفضى إليها فى صوت مختنق بأن ابن « آل بريسكوت » قد مات! فأجابته محنقة: لقد مات بسبب « لى » . وأمسكت بطرف الدرج حتى لا تسقط من فوق مقعدها . ثم

سألته : وكيف اكتشف موته ؟ قال: وجد هامدا فى مهده هذا الصباح مخنوقا أو شيئا من هذا ، ولم تستغرب الأمر ، فلقد حسبت أنه كثيراً ما التف بالفراش واختنق غير مرة . وقيد موت الطفل بسبب حادث، وشيع الجثمان فى جنازة بسيطة بعد صلاة قصيرة . وخانتنى شجاعتى فلم أحضر الصلاة فى الكنيسة على الجثمان . وعاد « بوب » إلى مكتب العمل بعد أيام قلائل ، وطلب إلى أن أذهب معه لتناول فنجان من القهوة فرأيته منتصف اليوم . فلما جلسنا منفردين فى أحد أركان المقهى أسر إلى فى إيمان: أن الله أراد بى رحمة واسعة منذ رأيتك «يا نانس». وظهر عليه أنه كان يجاهد فى إخراج الكلام وهو يشرب القهوة فى ذهول، كما كان وجهه شاحبا هزيلا متعبا ، وانطبقت شفتاه على خيط رفيع مر . وبدا فى نظرى أكبر سنا مما كان قبل أسبوع ، وعاودنى الحنين المضنى إلى ضمه بين ذراعى

وكنت أقدر أننا لا بد أن نتكلم عن موت « تدى » وإن لم يكن اليوم ففى وقت قريب ، ولكنى كرهت ذلك الحديث على أية حال . وأرقنى ضميرى وأسرف فى اللوم ، حتى رغبت رغبة شديدة فى الاعتراف لبوب رجاء أن يغفر لى تركى الطفل فى تلك الليلة حتى أريح ضميرى ! على أن أى اعتراف من جانبى كان لا بد أن ينال «لى» وبقدر ما كرهتها ولعنتها واعتبرتها المتهمة الأولى فى موت الطفل ، أحجمت كل الإحجام عن أن أفضى بذلك لزوجها. وأخيرا قال « بوب » أريد أن أتحدث عن «تدى» « يا نانس » الذى لا يغيب عن بالى أبدا ، فقلت : بالطبع أقدر عواطفك تماما وشعورك المرهف النبيل ، كما أحس بإيحاشه لك . ولهفتك على فلذة كبدك ، الذى كان عمره كعمر الزهر فأنست به قصيرا ثم غاب مسرعا

وإن هذا أشد على النفس مما لو لم يرزق الإنسان ذرية قط . فقال « بوب » إنك على حق فيما تقولين ، فقد كان هذا الولد كنزا بين يدى واختطف منى بغتة ، وأشد إيلاما من ذلك أننى دائم التفكير فى أن موته ما كان ليحدث لو بقيت أنا فى المنزل لأعنى به !

فطلبت إليه فى توسل ألا يعنف نفسه ، فإن الآجال محدودة . وقد يحدث الموت بدون سبب . ولا بد أن نتقبل هذه الأوضاع برضا

فنظر إلى فاحصا وقال : إن ضيقى ناتج من أنى مختزن فى ذهنى كثيرا من الشكوك والمخاوف ، فقد أصيب زواجى بالمشاكل ، ولعلك حزرت ذلك ، ولكن شرب «لى» الخمر هو مسألة المسائل . ثم أومأ لحظة وواصل حديثه بعدها فى حرارة وأدب :

قال : لست أقصد أنها مدمنة ، ولكنا كثيرا ما تشاجرنا من جرائه . ورجوت بعد أن وضعت الطفل أنها ستقلل من الشرب ، وكانت فعلا عند حسن الظن بها فقد وعدتنى بأنها لن تشرب عندما ودعتها قبل السفر . ولكن لم تتوفر لها الظروف لتبر بوعدها ، فقد حضرت « جيرى » صديقتها القديمة ، والتى كانت صداقتها مضرة بهما معا . وفى هذا اللقاء . اقترحت «لى» أنه لابد من أن تشربا إحياء لاستئنافها اجتماعهما ، ولاشك فى أنه كان اجتماعا فاسدا مسببا للخراب . وعلى هذا لا أستطيع أن أحالف حدسى فى أن ذلك سبب موت الطفل العزيز . هذا وأن احتساء بضع كؤوس بسيطة من الخمر شىء ، أما احتساؤها حتى العربدة فشىء آخر . آه لو أيقنت أنهما لم تكونا كذلك عندما فارق الحياة! وتردد برهة ثم سألنى مصمما قال : لقد زرت منزلنا فى يوم الأحد الماضى فأجبرنى « يا نانس » كيف كان الحال آنئذ . وشعرت « نانس » بأن اللحظة الحاسمة قد أزفت ، فإما أن تخلص «نانس» «لى» أو تتحداها بقول الصدق ، وبذلك تهدمها إلى الأبد فى نظر زوجها . وأخيرا اتخذت قرارا حاسما وقالت الشىء الغريزى الذى تقرره أية امرأة مخلصة فى حبها لرجل فكذبت عليه لتخلصه من آلام ظنه بأن إهمال «لى» كان سبب موت ابنه

وقالت : لقد كان بخير عندما تركته — وأكدت له ذلك قدر ما استطاعت — كما كان كل شىء على ما ينبغى ، فلا داعى للوم «لى» على ما حدث

فجلس «بوب» ينظر شزرا فى الفضاء . وخشيت عليه الضر ، فقلت بصوت متهدج دون إرادتى : لا تدع الحزن يولد مرارة فى نفسك يا بوب . وستفجر السعادة ثانية ، وسيكون لك أطفال آخرون أكبر قيمة وأكثر معزة عندك ، بسبب أنك احتسبت هذا الطفل بالذات

ونظر إلى لحظة ، وكأنما كانت عيناه الرماديتين تفحصان وجهى ، ثم قال : فى بطء بعد أن هز رأسه : إنى أشك فى أنى سأعقب أى أطفال بعد الآن يا نانس فإن «لى» تريد أن تعود إلى العمل ( الوظيفى ) وتقول : إن العمل قد ينسيها كل الذى حدث ، كما أنها من أولئك النساء اللائى يردن أن يكون لهن مستقبل ملحوظ ، وقد تكون على حق فى هذا !

فسألته نانس عما إذا كان عارضها فى انتوته . فقال : ليس هذا من شأنى ، وعليها أن تقرر مصيرها بنفسها ، ولاسيما وأنى فى هذا الوقت لا أهتم لشىء ، بعد موت ندى الذى أصابنى بذهول ووحشة وشعور شديد

ولم يعد لدى ما أعيش من أجله بعد الآن

فقالت نانس : قلت لنفسى إنه تكلم بحذر وفى مضض ، وعبر بصوت حزين لا يقصد إلى أى معنى ، وليس فى ذلك من عجب ، فإن الحين يقضى على أى عهد متين بين شخصين . ولكن ربما زالت شكوكه فى لى بعد أن تنكسر حدة المصيبة كما يذهب معها شعوره باليأس والمرارة لفقد الطفل

ومن يدرى ؟ فقد أستطيع أنا المرأة التى أحبته فى يأس ، أن أحميه من الزواج بامرأة أخرى إذا ساعدنى الحظ وقدر لى أن أبلغ ما أريد، فساكفر عما أجرمت بإهمالى تدى

ومرت بضعة أسابيع ، وحدث ذات يوم بينما كنت وبوب نجلس فى مكتب العمل إذ دق جرس التليفون ، وكانت المتحدثة هى زوجته . ولم يكادا يتبادلان بضع جمل ، حتى شعرت بدقات قلبى تتزايد فى اضطراب. وفهمت أن الفرصة الذهبية التى أنحتها للى لتحمى حياتها الزوجية كانت على شفا حفرة سحيقة ستطرحها فيها ، وسمعته يسألها : أين أنت ؟ قالت : إنى فى الباخرة (مايفلور) مع جيرى . فسألها: ومتى ترحل السفينة ؟ وعقب ذلك فترة صمت طويلة شعرت أثناءها بموجة من الزمت تسود الحجرة . وأخيرا قال فى صوت كأنه يخاطب نفسه : ما مقدار ما احتسيت بالى ؟ إنك مخطئة إذا حسبت أنى متطفل عليك بهذا السؤال، وقد وعدتنى بأن تتقبلى ملاحظاتى بصدر رحب ، ثم قال فى جفاء : وهكذا قد رتبت لك جيرى برنامج الرحيل إلى نيويورك معها ، كان على أن أقدر هذا من قبل ! هكذا قد صممت قبل أن تناقشنى الموضوع معى !؟ حسن لا أريد أن أعترض سبيلك فى تكوين مستقبلك — إن كان سيكون لك مستقبل — وقد نلتقى عندئذ . ثم ألقى السماعة

وكنت أسير فى طريقى نحو الباب ، فسألنى فى ذهول : أذاهبة لتتغدى ؟ فقلت لا ، أريد أن أرى الرئيس لبضع دقائق

ولما قابلته أخبرته بأنهما لا تريد النقل الآن فقد غيرت رأيها . فلما عادت إلى المكتب ... قالت : لقد وجدت بوب واقفا عند النافذة ينظر محدقا ، ثم خاطبنى فجأة : تعالى نتناول الغداء معا « يا نانس » ، وسنذهب إلى ناحية ما من المدينة . إنى أريد أن أتحدث إليك ، بل فى الواقع أريد أن أبكى بين يديك ! فقلت: إنى أسمح لك بأن تفضى إلى بما تريد كلما أردت ، وكان موقفه هذا أكبر مشجع لى على إبداء أى تصريح « لبوب » ، ولن يكون الأول والأخير فقد عولت على مضاعفة انجاهى وجهودى العملية بشكل واضح صادق لمنافستى إياها فى حب زوجها

كانت « لى » بنيويورك منذ شهرين وما زالت فى عصمة « بوب » وربما حاولت التمسك به على الرغم مما بينهما من تباعد ، إذ ربما لا تزال تحبه على طريقتها الهلكة ، أو قد تلتحق بالوظيفة وتحتفظ بزوجها فى الوقت نفسه ، أما أنا شخصيا فلا أريد إلا « بوب » كما أنى على استعداد لأن أمنحها كل ما أمتلك . والمهم هو أن أتغلب على كل ما يحدث حتى أكون المرأة التى لا بد أن يحتاج إليها ويحبها

وقال بوب مرة أخرى عندما كان يجانب مصدقى : ماذا حدث لك يا فانس ؟ إنك متلألئة العينين بشكل غير عادى ؟! فقالت فى بشر : ليس بى من شىء ، ولكن أشعر بسعادة مفاجئة ، فسألها لماذا ؟ قالت : لست أعرف تماما لماذا ، وهل يجب أن يذكر المرء أسبابا لشعوره بالسعادة ؟ ! فقال : ليس ذلك ضروريا . واختلجت ابتسامة روحية حول شفتيه ، ثم قال : وهل تعتقدين أنى سأشعر بالسعادة ثانية بسبب أو بدون سبب؟

فقلت على الفور : ليس فى ذلك ريب ، ومددت إليه يدى ، وأمسكت بيده ، ونهضت من مقعدى ، وقلت إنى أعدك بالسعادة ، فقال : إنى فعلا أشعر ببعض الاطمئنان الآن ، وكان يداعب أصابع يدى ولكنى ارتعبت فجأة من هذا التماس ، وسحبت يدى من يده

فلما نظرت إلى أعلى ، رأيته يرمقنى بابتسامة لطيفة ، ووثقت من أنه قدر أنى أحببته حبا غامرا فى صمت ، شهورا بل أعواما

يا إلهى — لقد واتتنى الفرصة التى سأعوضه فيها من كل مافقد . وسأكفر عن كل ذنوبى إن كان لى ذنوب ، وسأصلى من أجل (ندى) و(لى) وسأشكر الله أن جعل لى الحق فى بوب فسأطوقه بذراعى ، وأغدق عليه من القبل ، وأبدد قلقه وأعوضه أحلاما سعيدة

زينب الحكيم

عن مجلة modern romances الأمريكية